المحاضرة الخامسة

/ مملكة أكسوم (إثيوبيا) ق1 – ق7 م:

قبل أن تتأسس مملكة أكسوم كانت منطقة إثيوبيا وإيريتريا تابعة إلى ممالك شبه الجزيرة العربية خصوصا مملكة سبأ التي كان لها تأثير واضح على المنطقة خصوصا المباني والمعابد، وتقول المصادر الأولية أن تاريخ مملكة أكسوم يمتد من القرن الأول حتى عام 1000م؛ لكن فترة سيادتها واستقلالها تنتهي عند القرن السابع الميلادي.

وتقول المصادر أيضا أنه تعاقب على عرش أكسوم قرابة 20 ملكا يعرف أغلبهم من عملتهم، ومن أشهر هؤلاء الملك 'عيزانا' والملك 'كالب'، ومن أشهر المصادر التي تؤرخ لحضارة المملكة نجد "بلين" الذي يتحدث عن أكسوم باسم أدوليس (عدولي)، والمؤرخين العرب كابن هشام، وابن حوقل إلى جانب الاعتماد على النقوش والآثار المادية التي انطلق منها علماء الآثار في تأريخهم للمنطقة.

وعلى ضوء ذلك فقد حدد علماء الآثار مملكة أكسوم أنها مستطيلة الشكل بطول يبلغ 300 كلم وعرض 160 كلم، وتقع بين خطي عرض 13 و 17 شمالا، وخطي طول 30 و 40 شرقا، وهي تمتد من كرن في الشمال إلى ألاقي في الجنوب، ومن أدوليس على الساحل شرقا إلى تكازي غربا، وورد اسم أكسوم لأول مرة في كتاب الطواف في بحر إريتريا، وذلك في نهاية القرن 1 الميلادي، كما ذكر عند بطلميوس خلال القرن الثاني الميلادي.

ويعطينا كتاب الطواف في بحر ايريتريا معلومات عن أدوليس أيضا حيث يذكر أنها تقع في الشمال لكن في الداخل؛ أي على بعد 50 كلم جنوب مصوع، وكانت أدوليس السوق الكبير ولكل منتجات الأكسوميين وخصوصا العاج.

وتقول نفس المصادر دائما أن أكسوم وأدوليس هما الموقعان الوحيدان اللذان احتفظا باسمهما القديم، ولا تزال أدوليس فيها بعض النقوش والآثار يطلق عليها اسم "عزولي" أو "عدولي".

وبالحديث عن أكسوم المملكة فقد كانت خلال القرن الثالث تتمتع بصيت ذائع طبقا لنصوص تلك الفترة، حيث وصفوها بأنها الثالثة في العالم، كما أن المباني الضخمة وبعض الدلائل المادية مازالت تحتفظ بذكرى عهد تاريخي مجيد، حيث كانت أكسوم تعرف بمبانيها ذات الطوابق العالية، وهو ما يمزها عن غيرها من الممالك الأخرى، واشهر هذه المباني هي ثلاث: "إند سمعون"، "إند ميكائيل"، "تعخا ماريام".

كما تم اكتشاف ثلاثة أفران من الطوب المحروق في الجانب الغربي من المدن الثلاث، ويبدوا أنه كان يستخدم في التسخين أو الإحماء، بالإضافة إلى موقع "دنقور" الذي يعتبر

أحسن مثال للعمارة الأكسومية، كما وجد مبنى آخر نسبته الروايات إلى الملك 'كالب'، وابنه 'قبرا مصقل'.

أما أدوليس التي تقع إلى الداخل وتغطي الصخور والرمال والأشجار اليوم جزءا من مخلفاتها؛ لكن ما عثر عليه يدل على أنها كانت شكل مستطيل طوله 500 متر وعرضه 400 متر.

ومن جهتها المدينة الثالثة وهي 'مطرا' التي تقع على الهضبة الإيريترية وعلى بعد 135 كلم جنوب أسمرة اليوم، ويوجد بها واحد من اقدم المواقع الأثرية تنتمي أجزاؤه السفلى إلى بناء كبير من العصر العربي الجنوبي، كما كشفت الحفريات عن وجود أربع فلات كبيرة وثلاثة كنائس مسيحية، وحي سكني يظم 30 بيتا.

أما المدينة الرابعة وهي "كوهايوتو" التي تقع إلى الشمال من مطرا على ارتفاع 2600 متر، توجد منها العديد من الأطلال ذات الأهمية المعمارية، حيث توجد عشرة تلال تحتوي على بقايا مبانٍ كبيرة تنتمي إلى نهاية العهد الأكسومي.

وعلى ضوء ما سبق كانت هذه المدن السابقة بمثابة مجتمعات متلاحمة مكتظة بالسكان، وهي قريبة من بعضها البعض، وقد أثبتت الحفريات أن تلك الأماكن مراكز مدنية حقيقية.

وما يميز المعمار الأكسومي بشكل عام هو استخدام الحجارة والتخطيط المربع أو المستطيل، والقواعد السفلية للمباني هي مدرجة تقام من فوقها المباني الضخمة، وأسلوب البناء لا يستخدم فيه أي بلاط غير الطين، وأغلب الفيلات والقصور كانت تشتمل على طابق فوق الطابق الأرضي على الأقل.

ومن جهة أخرى اشتهر سكان أكسوم باشتغالهم في الفخار، حيث برعوا في صناعة الأواني الفخارية التي تستعمل غالبا في الأغراض المنزلية، وهي تصنع من الطين الأسود والأحمر، كما اشتهروا بتزيين تلك الأواني برسومات مختلفة تسقل على جوانبها.

وأكثر ما يميز أكسوم في جانب الآثار والنحت هو قطع العملات المتداولة، حيث منها من كان يتم التعرف على أسماء ملوك المملكة، فقد أتاحت التعرف على 18 ملكا من ملوك أكسوم، واغلب تلك القطع مصنوعة من البرونز يتراوح حجمها من 18 إلى 22 ملمتر.

وتنقسم المملكة الأكسومية إلى أكسوم الأصلية والدويلات التي تخضع لها، بحيث أن حكامها خاضعين لملك ملوك أكسوم، ويدفعون لهم الجزية، وكان الإغريق يطلقون على عاهل أكسوم لقب ملك (basileus)، وملوك القاطعات الأخرى لقب حكام (archantes)، أو الطغاة (tyranni)، أو زعماء القبائل (ethnarchs).

وكان لكل شعب ومملكة وإمارة ومدينة وقبيلة نجاشي خاص بها مهمته هو الإشراف على عملية البناء، وانتشر وجود الملوك التابعين لأكسوم انطلاقا من هضبة "تقري" إلى مرتفعات الحبشة، وحتى إلى شبه الجزيرة العربية، وبعد انتصار الملك "عيزانا" امتدت الدولة إلى أرض النوبة العليا.

وبخصوص جمع الجزية كانت تتم عبر طريقتين؛ إما أن يرسل الملوك التابعين لأكسوم جزيتهم سنويا إلى المملكة أو أن يجول ملك أكسوم نفسه مصحوبا بحاشية كبيرة في أنحاء مملكته ليجمع الجزية.

وتكاد المعلومات لا تتوفر عن نظام أكسوم الإداري الذي يبدوا أنه كان نظاما غير متطور، حيث أن أقرباء الملك هم من يديرون شؤون المملكة، وكانت قيادة الجيوش توكل إلى الملك نفسه أو لأخيه.

النشاط التجاري لأكسوم:

ما يميز أكسوم عن باقي الممالك الأخرى في المنطقة هو تفوقها التجاري، حيث كانت دولة تجارية من الطراز الأول، وهذا لاستراتيجية موقعها، وكانت أكسوم أول دولة إفريقية مدارية تقوم بضرب عملة خاصة بها، حيث أنه لم تكن أي دولة من الدول التابعة لها بما فيها حمير باليمن وعلوة بجنوب السودان لم يكن لها عملة خاصة.

ولم يكن ضرب العملة نشاطا تجاريا فحسب؛ بل سياسيا أيضا فهو يدل على استقلال ورفاهية أكسوم، ,اسماء ملوكها، وشعارات حكمهم، وكان أول ملك أكسومي روج لملته الخاصة به هو الملك "أنديبس" endybis في النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد، وكانت العملة الأكسومية شبيهة بالبيزنطية.

وانطلاقا من روايات الكتاب الرومان والبيزنطيين يمكن أن نحصل على فكرة عن السلع التي كانت تصدرها أكسوم، حيث كانت تشمل صادراتها العاج، جلود فرس البحر، القرود، الرقيق، تبر الذهب، إلى جانب العطور والذهب والحيوانات.

أما بخصوص المواد التي يتم الحصول عليها خارج أكسوم هو الزمرد من صحراء النوبة ويتم تصديره إلى شمال الهند، إلى جانب ذلك كانت تصدر المواد الزراعية، حيث أن القمح الإثيوبي الشهير كان يصدر إلى البلدان المجاورة إلى جانب تصدير الألبان، والأدوات التي يقوم بإنتاجها الصناع والحرفيين.

أما وارداتها فشملت بعض المواد الغذائية مثل الخمور وزيت زيتون اللاذقية (السوري)، ومن الهند كانت تستورد الأرز وحتى القمح كذلك، وقصب السكر، كما كانت مصر مصدر لاستراد الأقمشة الخشنة والأدوات المصنوعة من الزجاج الشفاف، وعلى غرار

ذلك تاجر سكان أكسوم في الرقيق حيث تشير نقوش ومصادر "عيزانا" التي تتحدث عن حروب أكسوم في حمير إلى أسرى الحرب الذين كانوا يعتبرون سلعة مرغوب فيها من قبل التجار الأجانب .

وازدادت الحركية التجارية أكثر بعد ان أخضع ملك اكسوم بلاد النوبة العليا وجنوب شبه الجزيرة العربية، وإقليم بحيرة تانا، وقبائل الصحاري المحيطة بإثيوبيا آلت إليه السيطرة على الطرق التجارية التي تصل مصر وسوريا بأقطار المحيط الهندي، ومداخل شمال شرق إفريقيا، كما أصبح مضيق باب المندب واحد من الطرق المائية الرئيسية الثلاث في العالم القديم.

الحياة الثقافية:

مع استقرار الحياة السياسية وتطور العمران وازدهار التجارة بدأت تظهر ثقافة خاصة للمجتمع الأكسومي، حيث ظهرت جليا في النقوش والنُحت التي برزت ما بين القرنين 2 و 4 الميلادي فتغيرت مثلا النقوش التي كانت تكرس للآلهة تدريجيا إلى وصف تفصيلي للانتصارات التي حققها ملوكها، ومن النقوش الأكثر إثارة للانتباه في ذلك الصدد، تلك النقوش الإثيوبية والإغريقية التي تصور الملك "عيزانا" الذي بلغ قمة الابداع التعبيري في نقش يتضمن وصفا كاملا لحملته النوبية.

وتتمثل الأفكار الأساسية لتلك النقوش في تمجيد عاهلٍ قويٍ منتصرٍ، تعد إثارة غضبه ضربا من الجنون وحمدا للآلهة الذي يحظى الملك بحمايته الخاصة والدائمة، وقد صاحب ذلك تطورا موازٍ في الشعارات المكتوبة على العملة إلى جانب صورة واسم ملك كل فترة.

ومن جهة أخرى برع الأكسوميين في الزخرفة خصوصا زخرفة العمارات والقصور الكبرى التي كانت تنفرد بها المملكة عن غيرها من الممالك الأخرى، وأشهر ما عرفت به أكسوم في مجال النحت والعمارة هو المسلة الحجرية البالغة الضخامة التي يبلغ ارتفاعها 33.5 متر تقف على مصطبة طولها 114 متر.

كانت وثنية الأكسوميين تشبه إلى حد بعيد ما كان يدين به أهل جنوب شبه الجزيرة العربية، وكانت ديانة متعددة الأرباب لها خصائص العبادات الزراعية والرعوية، وكان الأرباب الذين تمارس عبادتهم هم: عشتر (Astar)، الذي هو تجسيد لكوكب فينوس (الزهرة)، والإلهين السفليين بحير Behèr، ومدر Medr الذيّن كانا يمثلان الأرض.

وتأتي أشكال العبادة اللفظية بـ "أقزيا بحير" الله أو الإله بحير، أو إله الأرض، هذا إلى جانب إله القمر "هوبس" howbas، وآلهة أخرى كمحرم (إله الحرب والعرش)، ومن جهة

أخرى كان الأكسوميين يقدمون القرابين لآلهتهم، وكانت الحيوانات المستأنسة تمثل غالبية تلك القرابين.

المحاضرة السادسة

انتشار المسيحية في أكسوم:

يُرجع أغلب المؤرخين أن دخول المسيحية لأكسوم يعود إلى 'فرومنتيوس الشهير' الذي أصبح يدعى فيما بعد باسم المنير (كساته برهان) أو أبا سلامة، ووصف المؤرخ 'روفينوس' وصول 'فرومنتيوس' إلى إثيوبيا ورحيله إلى الإسكندرية ثم عودته إلى أكسوم وصفا تفصيليا وهذا خلال القرن الرابع ميلادي.

وتقول الروايات أن أول ملك أكسومي قام بتعليمه فرومنتيوس كان الملك "عيزانا" إبن "إيلي – عمدة"؛ لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف استطاع هذا الأخير التأثير على العائلة الملكية وادخال المسيحية في ظل تمسك ملوك الامبراطورية بديانتهم الوثنية.

وعليه يمكن ارجاع ذلك التغير الديني إلى أن بلاط أكسوم كان على صلات وطية مع القسطنطينية، وأن مبادلات تجارية وثقافية كبيرة كانت تجري بين البلدين، ويشير المؤرخ "أوزيب" في كتابه (حياة قسطنطين) إلى وجود إثيوبيين في القسطنطينية على عهد قسطنطين.

ورغم ذلك لم يُقْدِم عيزانا على التخلي عن ديانته التقليدية فجأة، واعتناق المسيحية خوفا على منصبه وإثارة شعبه؛ بل راح تدريجيا يعتنق الدين الجديد، وظهر ذلك في ما عثر عليه في النقوش التي جمعت بين الدين الجديد والإيمان بالدين القديم (بحير، مدر)، وتجنب أي ذكر لاسم المسيح أو لوحدة المسيح مع الله، أو الثالوث (الأب، الروح، القدس)، فعبارة رب السموات والأرض (أجزيا وسماي، ومدر) التي نطق بها لأول مرة في القرن 4م أول ملك مسيحي قد ظلت تستخدم إلى يومنا هذا.

ويُلاحَظ أنه لا الكتب الأجنبية ولا الروايات المحلية ذكرت التاريخ المحدد لدخول المسيحية؛ لكن بعض الروايات تقول أن المرة الثانية التي عاد فيها "فرومنتيوس" إلى أكسوم كانت عام 315م ومصادر أخرى تقول 333م، وأخرى تقول 343 م لكن يتفق الجميع على أنها دخلت في القرن الرابع الميلادي.

وبعد دخول المسيحية وازدياد عدد معتنقي الديانة الجديدة تكاثرت الرحلات إلى الأراضي المقدسة، وفي خطاب مرسل من القدس عام 386م كتبت واحدة اسمها "باولا" إلى صديقتها "مارسيلا" التي كانت تقطن في روما تقول: "وماذا نقول عن الأرمن ...هن الهنود والإثيوبيين الذين يهرعون إلى هذا المكان (بيت المقدس) حيث يسفرون عن فضائل مثالية".

وكان انتشار المسيحية في مملكة أكسوم خلال القرنين 5 و6 أكثر نتيجة جهد رجال الكنيسة التي تصفهم النصوص التقليدية بأنهم (صآدقان)؛ أي عادلون أو "تصاتو- كدوسان" تسعة قديسين.

ويعود الفضل إلى أكسوم في إدخال المسيحية إلى عدة أماكن أخرى على غرار علوة (ألوديا) في جنوب النوبة، وهذا من خلال الحملات التي كان يقوم بها ملوك أكسوم نحو جنوب النوبة.

الكتابة واللغة:

أولى الحروف التي أُستعملت بأثيوبيا، والتي ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد من اصل جنوبي عربي، وهي لغة تشبه اللهجات السامية بجنوب شبه الجزيرة العربية؛ لكن بمرور الوقت أصبح الناس يتكلمون باللغة الأكسومية، وهي تختلف عن القديمة لكنها مشتقة منها، ويبدا استعمالها في القرن 1م، وتتألف الأبجدية الأكسومية من حروف ساكنة جامدة، وهي تكتب من اليسار إلى اليمين بعد أن كانت العكس، ويطلق على اسم تلك اللغة بالجعزية Geez، وهي جزء من المجموعة الجنوبية لأسرة اللغات السامية.

نشأة الحضارة الأكسومية:

بدأت تظهر حضارة الأكسوميين قبل القرن الخامس من الميلاد، وقد قامت بتأثير من حضارة شبه الجزيرة العربية، وهي حضارة زراعية في الأساس، وازدهرت بعض الشيء خلال القرنين 5 و 4 قبل الميلاد؛ لكن اضمحلت بعد ذلك وبقيت حضارتها مختبئة، ولم تمت خصوصا في الجانب الديني حيث بقي الإله عستر يُعبد لدى سكانها إلى جانب بعض التقاليد المعمارية والزراعية، وبقيت على ذلك النحو إلى أن عادت إلى الوجود مرة أخرى مع القرن الأول للميلاد، ساعدتها في ذلك العوامل الاقتصادية، فقد كانت الزراعة وتربية الماشية هما عماد الحياة الاقتصادية.

وإلى جانب ذلك ازدهرت التجارة البحرية في البحر الأحمر خلال القرنين الأول والثاني من الميلاد، وهذا يعود إلى الانتشار الروماني في المنطقة الذي مهد له تطور الملاحة، وقد تحسنت كثيرا وسائل الملاحة، حيث استخدموا الرياح على أحسن وجه، وسجل سترابون أنه في زمن أغسطس كانت تخرج من موانئ أكسوم 120 سفينة أغلبها تتجار مع بلدان البحر الأبيض المتوسط والهند، وكانت أدوليس نقطة إلتقاء التجارة البحرية.

وعلى غرار التجارة الخارجية لعبت التجارة الداخلية عاملا مهما في تطور المملكة خصوصا تجارة العاج، وكانت أكسوم نقطة التجمع الكبرى لهذه المادة.

وبشكل عام نمت حضارة أكسوم في القرن الاول الميلادي، وإن تكن جذورها ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، وهذه الحضارة جاءت نتاج لعملية نمو وتطور ساعدتها الأحوال الجغرافية والظروف التاريخية، ولا شك أن الحضارة الأكسومية هي قبل كل شيء حصيلة جهود شعب ما زالت هويته العرقية تكتشف إلى اليوم.

وتتفق العديد من المصادر التاريخية أن الملك "زوسكاليس" أو "زا هيكالي" هو أول ملوك المملكة في الفترة الميلادية، فقد كان هذا الأخير يسيطر على الساحل الإيريتري للبحر الأحمر، أما صحراء البجة فقد كانت واقعة تحت سيطرة "مروى" ومع مرور الوقت بدأت المملكة تتوسع حتى ذكرت المصادر السبئية أنه في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث قام كل من الملك "قدرا" وابنه "كانا شين" هجوما على اليمن واحتلوا بعض اراضيها، وكان ذلك بالتحديد في الفترة ما بين 183 و 213م، وهذا ما يشير إلى توسع أكسوم وخروجها عن نطاق القارة الإفريقية إلى التوسع نحو شبه الجزيرة العربية.

وبحلول عام 270م بلغت شهرة الدولة بلاد الفرس؛ إذ ورد في كتاب المؤرخ "ماني" (العقائد) أن أكسوم هي احدى أقوى أربع امبراطوريات في العالم.

الحرف والمهن في أكسوم:

كان أغلب الأكسوميين يمارسون الزراعة وتربية الماشية حيث كانوا يقيمون المصاطب (مزارع على منحدرات الجبال)، ويقيمون بريها بمياه النهيرات المتدفقة من الجبال، حيث يصوبونها صوب الحقول، كما كانوا يشيدون الخزانات الصغيرة لحفظ مياه الأمطار، ويحفرون قنوات الري، وتبين الوثائق أن القمح وبعض الحبوب الأخرى كانت تزرع، كما مارس سكان المنطقة زراعة الكروم.

وكانوا يربون أيضا قطعان كبيرة من الأبقار والضأن والأغنام إلى جانب الحمير والبغال، كما تعلم الأكسوميين صيد الفيلة وترويضها حيث كانت تستخدم في البلاط الملكي، وتبين من النقوش والآثار المادية أن طعامهم كان يتكون من فطائر القمح الرقيقة والخمر، والعسل واللحم، والزبد والزيوت النباتية.

النظام السياسي:

لقد كان تأسيس المملكة هو نواة لتأسيس امبراطورية فمن نهاية القرن الثاني وحتى بداية القرن الرابع الميلادي اشتركت أكسوم في الصراعات الحربية والدبلوماسية التي دارت بين دويلات جنوب شبه الجزيرة العربية، وعقب ذلك استولت أكسوم على الأقاليم الواقعة بين هضبة تقري (تيغري)، ووادي النيل، وفي القرن الرابع الميلادي احتلوا مملكة مروى التي

كادت تنتهي في ذلك الوقت، وبذلك تم تشييد مملكة تشمل الأراضي الزراعية الخصبة في الشمال الإثيوبي، والسودان، وجنوب شبه الجزيرة العربية.

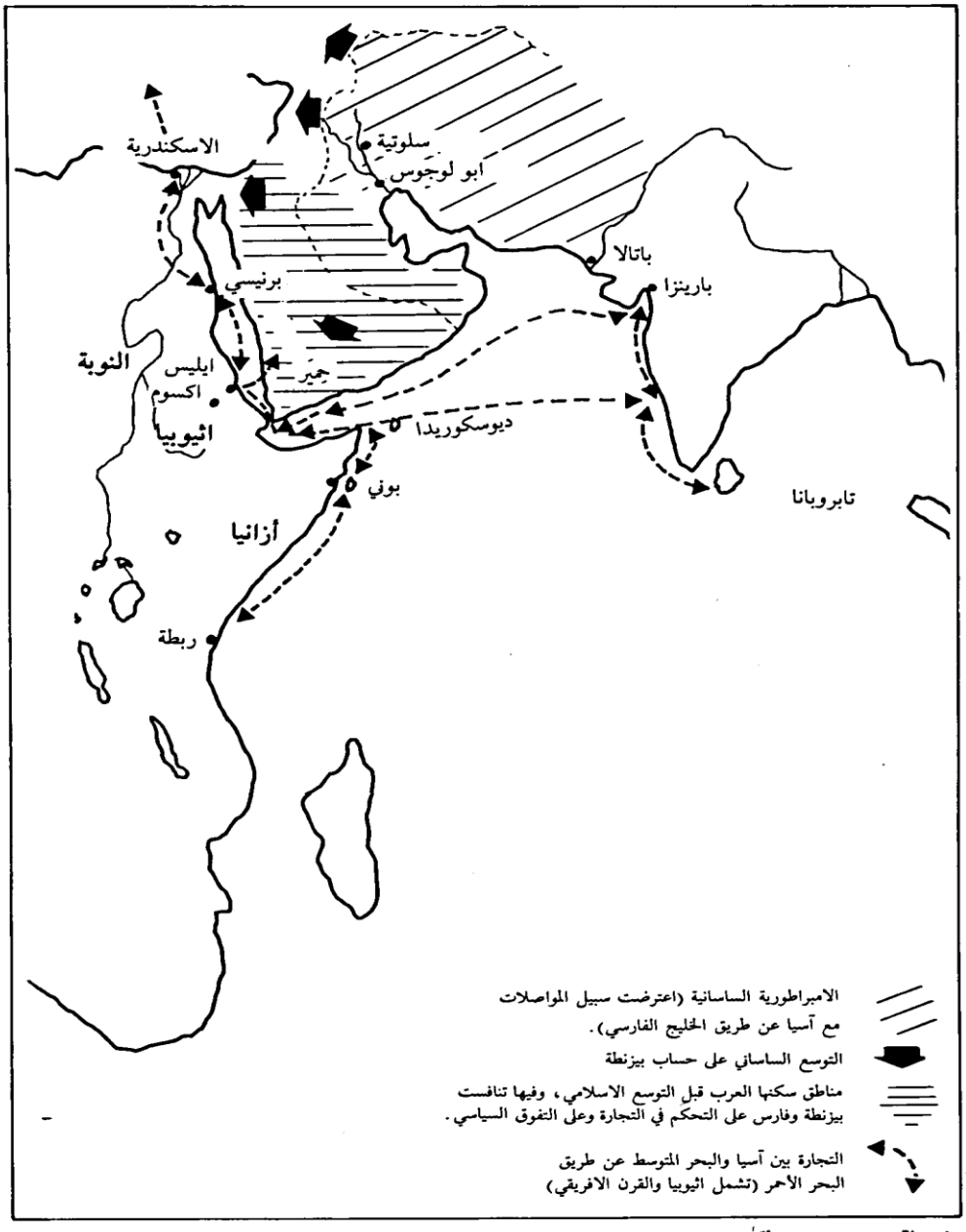

خريطة توضح توسع أكسوم

قائمة المراجع:

- محمّد عوض محمّد: **نهر النيل**، ط5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962

- محمّد عوض محمّد: **الشعوب، والسلالات الإفريقية،** الدار القومية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965
- إلهام محمّد علي ذهني: **بحوث ودراسات وثائقية في تاريخ إفريقيا الحديث**. ط1، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2009.
- ظاهر جاسم، محمد: **إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال**. المكتب المصري لتوزيع المطبوعات،2002.
- مختار جمال: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني، اليونيسكو، 1985.
- جين همفرس وثيلو ريهرين: انتاج الحديد في مملكة كوش، أ. لوهواسور و ب. وولف، 2014.

-. Battistini René : **Géographie de L'Afrique oriental : Kenya, Uganda et Tanzanie**. Centre de documentation universitaire, Paris, 1969

- **Bruce Williams :** The Kingdom of Kush in the 4th Cataract I-III Report on the Sites of Hosh el-Guruf and El-Widay, (African reports), vol 7, 2010, printed by expol, ul, brazeska 4, Poland, 2010.